المساواة

(٧)

الفوضوية

نشرت جريدة «التيمس» في اوائل يوليو سنة ١٩٠٠ رسالة بتوقيع كروبتكن الروسي انكر فيها أعمال البلشفية التي دعاها « ديكتاتورية حزبية » جازماً بفشلها المحتم. فسارعت الصحف العالمية المندّدة بالبلشفية الى تناقل هذه الرسالة مستعملة اياها كوسيلة من وسائل بث الدعوة ضد السوفيتية ، ومعلقةً عليها بما يعني ان كروبتكن الذي قضى عمرهُ مضطهداً منفيا لخروجهِ على حكومة القيصر انقض عن شيوعية وطنهِ وأخذ يناهضها بعد ان كان نازعاً منزعها مواطئاً لها . وفي هذا التلميح من ارباب تلك الصحف أحداثين: فاما تضليل لمن لا يعرف وجوه الاختلاف بين المتمردين السياسيين ، واما جهل محض توحدت عندهُ الاشتراكية والفوضوية لان على مقربة من الثورية الاشتراكية ثورية فوضوية هي أقلّ من تلك شيوعاً ولكنها اشدّ حرارةً وأقوى وحشية . كلاهما انبثق من الديمقراطية شاعراً بألم العمّال ورجعاً اصل الشقاء الى استبداد صاحب رأس المال بالمأجور ، ذلك الاستبداد الذي هو ، على قولهم ، مبعث افتقار الجماهير في سبيل تنعُّم اقلية ظالمة جائرة . وكلاهما يجاهر باستحالة اصلاح المجتمع القائم على الملكية الفردية قائلاً بوجوب تقويضهِ وقلب النظام الحالي رأساً على عقب. الى هنا يتفقان ثم يظهر بينهما الخلاف في اساليب التقويض وفي كيفية تنظيم المجتمع المقبل . الاشتراكية تريد تسخير الحكومة وارهاب رأس المال لتقليل ساعات العمل وتحسين حالة العامل ريثما يتم لها التغلب على زمام الحكم ، والفوضوية تريد الفتك بذوي المناصب لا لسبب آخر سوى انهم ينفذون قانوناً يكرههُ الفوضويون . الاشتراكية تعظم المجموع وكأنها لا تهتم بالفرد الاّ لانهُ جزء من مجموع هو كلّ شيء في تقديرها ، والفوضوية تقول باستقلال الفرد استقلالاً تامًّا يكاد يتلاشى المجموع حيالهُ . الاشتراكية تريد قلب النظام الرسمالي لتوطد مكانهُ نظامها الاشتراكيّ ، والفوضوية تريد قلب النظام الرسمالي وكل نظام سواهُ ،

تريد الغاء كلّ قانون على الاطلاق اخلاقيا كان أم سياسيًّا ام اجتماعياً . هي الفوضى اي التفويض الى الفرد إدارة شؤونه دون مراقبة أو سيطرة ، وتنظر الى الاشتراكية كشكل جديد من الشكن والادبرة ودور الحكومات فتنازلها مثلها تنازل الارستقراطية و الديمقراطية ،ولعلها في نظرها اشدّ الانظمة خطراً واستئثاراً. فلئن كانت الاشتراكية نقداً للمجتمع الحاضر فالفوضوية تنقد النقد ،وهدم الهدم، وزلزال الزلزال. فهل من عجب بعد هذا اذا ما استنكر كروبتكن تلك «الديكتاتورية الحزبية» وهو الفوضويّ المقاتل كل سلطة شيوعية كانت أم قيصرية ؟

***

ترى أيّ المفكرين نصدق، أروسو الهاتف بالعودة الى الطبيعة لان الانسان خير بطبيعته ولكن المجتمع أفسده بانظمته — أم هوبس المصرّح بأن الانسان ذئبٌ للانسان وانهُ طوي على الفوضوية لا يقمعها ويحسن ضبطها فيه سوى الحكم المطلق : الحسن دون سواهُ ؟

اذا تحرّى الباحث أحوال العالم بلا مشايعة ولا تحزب وجد من الناس الصالح والطالح ، الذكي والابله ، المسالم والمتحامل ، الخائن والوفي ، فوجب عليه قبول كلا المذهبين كتتمم احدهما للآخر . وليس هوبس بالشين ولا بالمتعسف لان اللانظام سارَ النظام في جميع أدوار التاريخ . وليست الفوضوية لا نظاماً موقوتاً بل هي حنق وعصيان متتابع يرمي الى تقويض اركان المجتمع . فنجدها في اضطرابات آلت الى تغيير النظم في بلاد اليونان والرومان يتخللها ذلك الطور الخاص المدعو بالديماغوجيا أي حكومة الرعاع ،وهو في نظر ارسطو خامس أنواع الديمقراطية (١) . ذلك الطور الموجد عهد الطغاة (Tyrans) وقد بدأ في بلاد

(١) الديمقراطية عند ارسطو على خمسة انواع : فالاولى هي التسوية بين الفقراء والاغنياء مع ضبط التوازن السياسي بينهم حتى لا يدع لاستبداد هؤلاء او اولئك مجالاً . والثانية لا يصل فيها الى المناصب العمومية الا من كان ذا ثروة . والثالثة يصير فيها جميع الوطنيين الى مجالس الحكم والتشريع على ان تظل السلطة العليا للقانون والنفوذ لكلمته . والرابعة ان يصل الى تلك المناصب من كان وطنياً بأي صفة من الصفات على ان يظل للقانون الحكم المطلق والسلطة العليا . والخامسة تكون فيها المناصب شائعة يرشح لها الجميع ولكن المرجع الاخير ليس الى القانون بل الى الجمهور الذي يقيم أحكامه مقام بنود القانون وله أن يغيرها ويعدلها ويلغيها ويبسطها بسواها كيفما شاء — وهي الديماغوجيا

اليونان خصوصاً في القرن السابع والسادس قبل المسيح. وكثيرون من اولئك الطغاة أمثال بيزيستراتس وارثاغوراس وبيرو وبوليكراتس كانوا اولاً زعماء الفتنة ودعاة التحريض ضد حكم الاماثل أو الاقلية ثم وصلوا الى الحكم الديكتاتوري الاعلى فكان عهدهم مقدمة لعهد الديمقراطية المعتدلة . اما الطاغية (باليونانية Tyrannos) فكان في فجر التاريخ عاراً في الغالب يكبره الشعب لانهُ انقذهُ من صولة المهاجمين وحفظ لهُ حرمة الوطن ، فلا يطول حتى يختارهُ زعيماً يتكلم باسمهِ في مقاتلة العظماء والكبراء . ثم تغيرت الاحوال وصار الزعماء يبلغون اعلى المراتب بفصاحتهم البيانية — موهبة ما فتئت ترفع ذويها الى الاوج، ولدينا من ذلك امثال امامنا في الدكتور ويلسن ولويد جورج وبلفور وسواهم من فطاحل الخطابة الجليلة الشأن

وظلَّ الاضطراب الديماغوجي يقلق هاتيك البلاد بدافع التنازع الاجتماعي بين الاغنياء والفقراء حتى وضع لهُ الفتح اللاتيني حدًّا بتأييد الموسرين . لان نظام البلديات الذي قامت بهِ الادارة الرومانية كان نظاماً تيمقراطياً أي انهُ كان يرتب الناس وفقاً لثروتهم ، وبديهيٌّ ان يخصَّ النافع ذوي اليسار بالحكم والمسؤولية . غير ان الامة الغالبة لم تسلم من مهمات الديماغوجيا لانها دُهمت هي أيضاً بتنافس الطبقات . فتعددت في سجلاتها اسماء الطغاة ، حتى ان المؤرخين يعتبرون اصلاحات الاخوين الطاغيين طيبيريوس وكايوس جراكس استهلالاً للدور الثوروي الذي تخطى بالجمهورية الرومانية الى الامبراطورية او القيصرية

تتالت جماعات الخوارج عند مختلف الشعوب مظهرةً استياءها بصنوف حمة من التمرد والمقاومة الى ان وصلت النوضوية الى طورها العصري . ويرى اصلها في فلاسفة الفردية في القرن الثامن عشر كروسو وسواهُ — المخبرين والمبشرين . ويكادون يستخرجون شعارهم من بيتين كتبهما ديدرو أحد مؤسسي الانسيكلوبيذيا الفرنساوية ومفادهما : « لم تصنع الطبيعة من الناس الخادم والمولى، وان لا اريد ان اسن الشرائع ولا ان تسنَّ لي »(١)

(١) La nature n'a fait ni serviteur ni maître,
Je ne veux ni donner ni recevoir de loi. Diderot.

ولكنّ صاحب الوجه النظري من هذا المذهب هو الذي يدعوه كروبتكن « أبا الفوضوية الخالد » ، هو برودون الفرنسوي (١٨٦٥ — ١٨٠٩) الذي انكر الملكية الفردية والملكية الشيوعية جميعاً ، قائلاً ان الاولى هي استبداد الاقوياء بالضعفاء وان الثانية هي استبداد الضعفاء بالاقوياء . وان حكومة تقرّ الملكية اية كانت وتحافظ عليها لحكومة لا يُطلبُ إصلاحها بل يجبُ قلبها . برودون يدعو الى هدم السلطة في جميع دوائرها واشكالها زمنية كانت أم روحية . فلا جيوش ولا محاكم ولا ادارة ولا كنيسة . يريد إبدال التقوى بالعدل والتدين بحسن الاخلاق . ومتى ألغيت السلطة حلّ محلها التعاقد الحرّ الاختياري فينظم المجتمع نفسهُ هيئات مركزية لاصحاب الحرف والفنون والصنائع بروابط معرّضة ابداً للحلّ والتبديل دون الخضوع لقوة غريبة . وهو يستحسن الفقر لانهُ يحثُّ على العمل ، وليس ليرى الرقيّ في الغناء والرخاء المفسد بل في ما يكتسبهُ المرء من صفات الرجولية وما يعزّزها من استقلال ذاتيّ وادراك حصيف لمعاني العدل والمساواة . فيعيش الفرد عندئذٍ حرًّا مستقلاً فينتج حسب استعداده ويستهلك حسب احتياجه . وهكذا تسير الانسانية في سبيل التقدم لا تقيدها شريعة ولا يذلها امرٌ ولا نهي

اما نظريّة « قيمة العمل » فواحدة عند برودون وماركس إلاّ ان هذا سخر بذاك ، لأن الماركسية وان خلت منادية بالمساواة فهي في الجوهر نظام ديكتاتوريّ لهُ صرامة القضاء والقدَر وقسوة التطوّر المحتوم الذي تقوم عليه . فتبدو ازاءها الآراء البرودونية في الحرية والمساواة والعدل خواطر شعرية روائية شفافة تذوب كالضباب عند شروق الشمس

ماركس يقول بالثورة الصريحة بلا مداورة ، أما برودون فتختلط عندهُ الثورة بالاصلاح ويتغلّب هذا أحياناً ، ولاسيما عندما ينصح للعمّال ان يتصافوا وأصحاب رأس المال. إلاّ ان هذا لا ينفي ان برودون ذا المواهب النادرة والنفس المتلظّية هو الذي شوش العقول وأهب القلوب واطلق سموم السهام، وان من فوضويته النظرية العلمية تولّدت الفوضوية العملية المحسوسة . فوضوية سار باكونين الروسي في سبيلها شوطاً بعيداً فاندفع وراءهُ المندفعون . كان شعار برودون « لا إله ولا سيد » فاضاف اليهِ باكونين « ولا عقيدة ولا شريعة »

***

ظهرت بوادر الفوضوية العصرية في الانترناسيونال المنعقدة مؤتمراتها بمدينة لاهاي في أواخر سنة ١٨٧٢ ، وذلك بانسحاب احد الزعماء باكونين الذي عيب الاشتراكية ان تكون حكومة ذات مجلس عام له سلطة ديكتاتورية مطلقة على اللجان الفرعية ، فتعود اليه هذه جميعاً للبت في شؤونها ويرجع الاحكام الى ماركس القائم على رأس التحالف زعيماً لا مردّ لقضائه . فانحلت الانترناسيونال وتشتت شمل الاعضاء فالاّ بعضهم الزعيم الالماني وشايع آخرون الزعيم الروسي ، وكما فلّ ماركس منطلقاً في تتميم مشروعه ابرى باكونين ينشر دعوته فأوجد التحالف الحرّ وانضمّ اليه كثيرون من مختلف البلدان . وأصدروا صحيفة «الطليعة» (Avant-Garde) التي لم تكن ان عُطِّلت . فاصدر كروبتكن بالاشتراك مع اليزه ركلو الفرنسوي صحيفة « المتمرّد » ذات الاثر الشديد في نشر الدعوة الفوضوية في اوربا واميركا سنة ١٨٧٨ ، لما كان عليه كروبتكن من مقدرة كتابية وبلاغة مستمرة . فضلاً عن انهُ ذو مذهب قيّم في ذاته ينمّ عن طبيعة طوّيت على الخير وحبّ بني الانسان حسنت الظنّ بالناس والاحوال فكانت شديدة الثقة بالمستقبل

كروبتكن لجميع الفوضويين يقول بالتحرير من النير الاقتصادي والحكوميّ والدينيّ ، وليس ذلك التحرير عندهُ حلماً من احلام الغواية بل هو نتيجة سينفضي اليها اتجاه الاجتماع الحالي . أما وسيلة التحرير فهي الثورة — الثورة الجديدة المختلفة عن كلّ ما سبقها من الثورات . تلك لم تتعدّ بلاداً شبّت فيها . اما الثورة الجديدة فاذا شبّت في بلد امتدت بسرعة الى ما يحيط بهِ وألهبت انحاء العمران . وهو يثور الثورة على الاصلاح لان في الاصلاح قبولاً مضمراً للماضي الذي يتعدّل بالاصلاح قليلاً او كثيراً بينما الثورة تسير الى الامام سابقة لتنصب على صحة المستقبل أعلاماً . ولما كانت الجرائم لا تُقترف الاّ ضدّ الملك ورأس المال (؟) فبالغاء العلة تلغ النتيجة والاخلاق الفوضوية تجعل الناس اذكياء احراراً صالحين عادلين (!) . واذا بقي هناك اشرار يميلون الى الاذى فالطبّ يُصدقك الخبر وهو القائل انهم مرضى ومجانين . فبدلاً من العقوبة والسجن عالجهم بالمؤاساة والاخاء ودع الجميع في راحة واستقلال يرتعون الى آماق معنوية مجهولة

وهكذا تطوّر ذلك التمرّد الذي كان عند روسو حنقاً على الشرائع ، وعند ماركس سخطاً على رأس المال لا على اهله فانقلب عند باكونين هتافاً بالحرية الطليقة مع كره للفتك ، وبدا عند كروبتكين ادراكاً لطبيعة الثأر دون ان يحكم له او عليه ، الى ان قرّر المؤتمر الفوضوي المنعقد في لندن سنة ٨١ شرعية كلّ وسيلة لابادة النظام الحالي واغتيال أئمته . ويقال ان صحيفة « الحرّية » في امريكا كانت ترشد الخدم الى كيفية تسميم مواليهم حتى عن طريق الاحذية !

على ان الفوضوية كجميع الميول البشرية تصطبغ بصبغة الشعب الذي يقبلها . فبينا هي حادّة لجوجة في تشيكوسلافيا وايطاليا واسبانيا مثلاً اذا بها هادئة مسالمة في اسوج ونروج والدانمرك . ومع ان في لندن جماعة فوضوية صغيرة كانت تصدر منذ اعوام صحيفة « الفوضوي » الاسبوعية ، ومع ان انجلترا وسويسرا ما فتئتا كعبة الفوضويين الاجانب ينشؤون فيها الاندية وينشرون الصحف بلغات متعدّدة لبثّ الدعوة في اوطانهم — فانهما لم تقاسيا من هذا المذهب ما قاسته الدول الاخرى . وذلك لان طباع اهليها باردة عملية تنزع خصوصاً الى الاصلاح الاقتصادي . وليس الشيوعيون في انجلترا بالفوضويين ، والمظاهرات التي جرت هناك منذ شهور ناتجة عن كثرة العمال العاطلين الذين وفر عددهم وتفاقم خطرهم في اكثر الممالك الكبرى . اما الفتن والاعتصابات فتتعلق بالمسائل الاشتراكية أو راجعة الى اسباب محلية خاصة . غير ان الفوضوية تتفق وطبيعة العامل الامريكي لذلك شاعت بين اولئك القوم واشترك اعضاؤها في عقد المؤتمرات وتهيئة الاعتصابات الفرعية تمهيداً للاضراب العام الشامل

***

ولعلها مزاج اكثر منها مذهب ، تلك الفردية المضخّمة المثبتة نفسها بالخروج على كلّ شريعة ، الجاحدة حتى مجالس النوّاب لأنّ الشعب بالإنابة والتمثيل إنما يقيم عليه موالي . « وهل يكون الثور حرّاً إذا هو اختار جزّارهُ ؟ » فجمعياتها بلا رؤساء وبلا هيئة تنفيذية ، ولا يجمع بين الاعضاء سوى وحدة المشرب والمطلب والرغبة في تداول الصحف الفوضوية ، والاحتفال حيناً بعد حين باعياد « شهدائهم »

ولقد فحص لمبروزو كثيرين من فوضويي شيكاغو وسواهم فزعم ان حالة الفوضوي المجاهد حالة عجز وسقام وما ظهورهُ بمظهر الجسارة والمنادادة سوى من « وثبات » الضعفاء المنهوكين . فمنهم المبتلون بالامراض المزمنة . ومنهم ذوو العريكة الخشنة الوعرة التي يعتاص عليها التطبع بطبائع الوسط . ومنهم ذوو الجمود الاخلاقي غير الشاعرين بهمس الضمير ودبيب الوجدان. ومنهم الجاني حباً بالجناية كالفوضوي الالماني موست الذي يرى فيهِ لمبروزو المذكور احط اشكال الجناة. ومنهم اهل الباطنية والروحانية واهل الوحي والرفعة مثل باكونين وكروبتكن . ومنهم الفدائي المقتنع بانهُ انما يضحي بنفسهِ خدمة لبني الانسان

وليفسحوا مجال الدخول الى الفردوس الموعود تراهم يكردسون الجثث على الجثث ويجندلون الصريع فوق الصريع

ان الفوضوية . مذهب محزن مروّع وهو على حداثة نشأتهِ ذو تاريخ مضرّج بالدماء (ي)

مدنية أوربا وحكوماتها

لنفرض ان الامم بفطرتها شريرة فاذا تركت لنفسها بدون وازع يزع او رادع يردع اكل الناس بعضهم بعضاً . وانها جاهلة فاذا تركت لنفسها لم تعرف الخير من الشر او الحسن من القبيح او النافع من الضار . وانها خاملة فاذا تركت لنفسها اطمأنت الى التقهقر بل رجعت الى الوراء وصارت الى التدني والانحطاط ورضيت من دهرها بالنصيب الاخس. ولنفرض ان الحكومات ليست من الامم بل هي من سلالة الالهة كما كان يزعم القدماء بل ان كثيرين من ملوك هذا العصر ومنهم امبراطور المانيا كانوا يقولون انهم تناولوا التاج من الله وانهم ظل الله على الارض. ولنفرض ان هذه الحكومات انما هبطت الى الارض لتمنع الشر وتدعو الى الخير وتقود الامم في سبيل التقدم والارتقاء . اذا فرضنا كل ذلك فكم يجب ان يتعاقب على الانسانية من الاجيال حتى تدجن وتتأنس وتتعلم وتتهذب وتصير قادرة على ان تفكر بعقولها وتنظر بعيونها وتسمع باذانها وتستقل بنفسها وتمشي في سبيلها بدون وصاية احد